مقدمة

تمتلك الحكاية الشعبية من المزايا والسمات ما يجعلها تتنقل بحُرِّية شبه مطلقة عبر حواجز اللغة والجغرافيا والزمن، ولعل من أبرز مقوماتها أن جميعها يجنح نحو السهولة والسلاسة، بالإضافة إلى عمق المعنى ورسوخ الدلالة للتعبير عن الفكرة المراد إيصالها، وربما لا نجد على الإطلاق شعبًا من الشعوب أو أمةً من الأمم لا يعتز أفرادها بحكايات أسلافهم ومروياتهم فِي الماضي البعيد أو القريب، يتلاقفونها جيلاً بعد جيل، ثم لتصبح بعد ذلك جزءًا ومكوِّنًا أساسيًا من الذاكرة الجمعية، يختزن ما تواضع عليه الناس فِي مراحل زمنية معينة من قيم وأخلاقيات وأفكار وتطلعات ورؤى، بل وحتى خيال خصبٍ أيضًا.. وبهذا المعنى، فإن الحكاية الشعبية من شأنها أن تحمل ملامح المجتمعات عبر عصورهم المختلفة، وما يحيط بهم من تضاريس بيئية وجغرافية ومناخية.

يشير الباحثون إلى أن الحكاية الشعبية ظلَّت عبر العصور والحقب تمثِّل التسلية الأولى والمثلى للمجتمعات، وبصفة خاصة فِي أوقات الفراغ، وعندما يحلُّ الليل، حيث كان الأفراد يتحلقون حول النار المشتعلة تحصلاً للدفء فِي الشتاء أو الإنارة تارة أخرى، على شكل مجموعات عائلية أو قبلية أو صداقية، وكانوا فِي تجمعاتهم الصغيرة تلك يحتاجون إلى تزجية أوقاتهم الطويلة فِي

الحديث، فأخذوا فِي باديء الأمر يتداولون سير آبائهم وأجدادهم ممن لدى بعضهم مآثر بطولية، وبمرور الزمن وتوالي الحقب، اخترع مثقفوهم آنذاك الحكاية، ثم أنهم وجدوا أنهم يحتاجون إلى أن يجروا تغييرات معينة فِي تفاصيلها بغية جعلها أكثر إثارة وتشويقاً لدى متلقيها، وبذلك دخل عنصر الخيال لأول مرة، فاستمرأته الأقوام وأخذت تستزيد منه، فاستجاب الرواة الجدد وواضعو هذه الحكايات لهذا التوجه، فأخذت تخرج من بين أيديهم بضاعة أكثر حذقاً ودقة وإتقاناً.

يرصد الباحثون أن العوامل الحاسمة الأخرى لإطراد نمو هذه الحكايات، تمثلت بدرجة أساس فِي التجارة أو الحروب أو التبشير الديني أو السفر لغرض طلب العلم، هذه العناصر التي ما لبثت أن أصبحت من الروافد القوية للحكاية أخذاً وعطاءً، واضطلع الرواة بمهمة الحذف أو الإضافة أو تغيير الأسماء والأمكنة إن تطلب الأمر ذلك، ولعل هذا هو من المزايا الأساسية للحكاية الشعبية.

يقول د. عبد الحميد يونس قي كتابه (الحكاية الشعبية) الصادر عن الهيئة المصرية الكتاب بمصر؛

"... والعلماء يتفقون أو يكادون، على أن نسبه الحكاية إلى هذا المؤلف أو ذاك لا تعني شيئًا بالنسبة لشعبيتها، لأن الفيصل فِي ذلك إنما يقوم على استقبال الطبقات الشعبية لها وترديدها إياها، وبذلك تخرج من جمود التدوين ومن طابع العبقرية الذاتية إلى التنقل المتسم بالمرونة ".

وقد وجد الباحثون أن هناك أنماطًا معينة من الحكايات، وهي؛

أولاً؛ حكاية الحيوان، والتي تعدُّ من أقدر أشكال الحكايات الشعبية وكونها الأقدم على الإطلاق، وهي تستهدف فِي الغالب غاياتٍ أخلاقية، ولعل من أقدمها حكايات (كليلة ودمنة) المنسوبة للحكيم الهندي بيدبا، وكذلك حكايات إيسوب الإغريقي.

ثانيًا؛ حكايات الجان والعفاريت التي تظهر فِي الموروث الشعبي العراقي عبر ثيمة (السعلوة) أو الغول أو الطنطل وغيرها.

ثالثًا؛ حكايات السير الشعبية الطويلة التي كانت تقدَّم إلى الناس وفق طقوس خاصة على لسان (القَصّخون) ومن أمثلتها (حكايات عنترة بن شداد) و(حكايات الزير سالم) و(أبي زيد الهلالي) و(سيف بن ذي يزن) وسواهم... ونحن فِي كتابنا هذا لسنا بصدد إيراد مثل هذه المحكيات.

رابعًا؛ حكايات الشطار والمتعلقة بالفتوة، وهي ذاتها حكايات اللص الشريف فِي الغرب، ولدينا فِي العراق العديد من أمثلة هذه الحكايات التي يستند الكثير منها على أسس واقعية، ومن نماذجها الحكايات المتعلقة ببعض الولاة العثمانيين الذين حكموا العراق كسليمان باشا الملقب ب (أبو ليله) والذي حكم العراق فِي العام ١٧٤٩ وعمر باشا وغيرهما... أو تلك التي تتحدث عن بطولات بعض الأشقياء المعروفين كإبراهيم ابن عبدكة.

نشير هنا إلى أن عملنا فِي هذا الكتاب كان مضنيًا وشاقًا، وقد احتجنا إلى مزيد من الصبر والوقت والتقصي والانتقاء بين كمٍّ هائلٍ من الحكايات التي عثرنا عليها فِي مظانها المختلفة، ونظرنا فيها نظرة تفحص وتمعن، فأعدنا صياغة الكثير من الجُمل والعنوانات التي وجدنا أنها بحاجة إلى ذلك، وحذفنا ما رأينا أنه زائد ويصيب النص بالترهل.

على أنني أودُّ التنويه هنا بصفة خاصة أن جميع هذه الحكايات، هي حصيلة كدِّي الدؤوب وعملي المتواصل ولعدة أعوام فِي إذاعة المستقبل ببغداد، للأعوام من ٢٠٠٧ وحتى ٢٠١١، حيث اضطلعت المذيعة القديرة والسيدة الفاضلة "هدى رمضان" بتقديمها بصوتها الرخيم فأضفتْ عليها من روحها البغدادية الأصيلة وذوقها المتميز الشيء الكثير.

أحمد الحلي